الفصل الثاني

الاتصال اللفظى وعالم اللغة

- أولاً: طبيعة النظام الرمزي بين اللغة والخطاب.
- ثانياً : السمات الاجتماعية للتفاعل اللفظي.

(اللغة و الاتصال اللفظي)

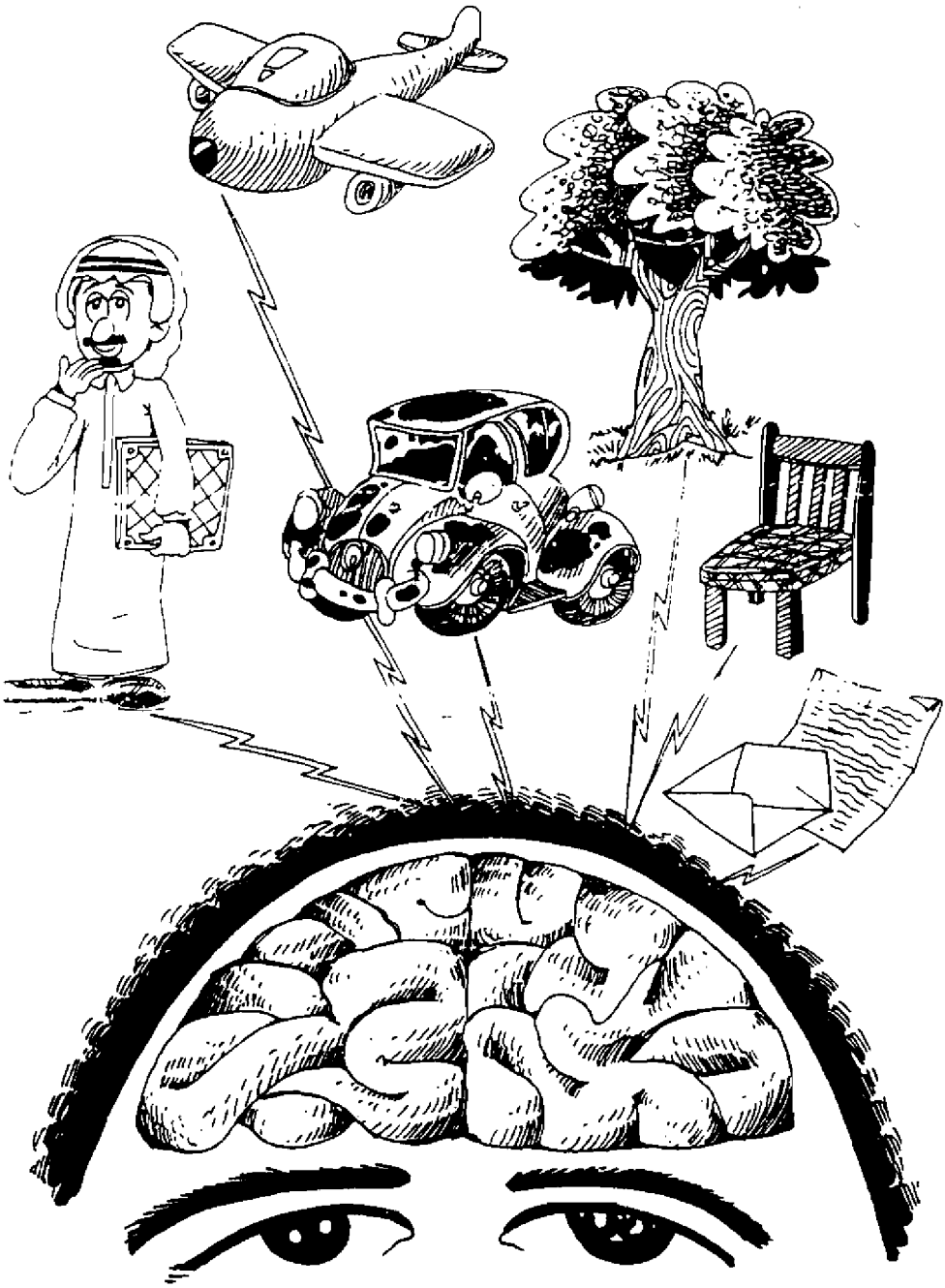

في هذا الجزء سنحاول استجلاء القاعدة الأساسية للاتصال من خلال تقديم صورة متكاملة عن عالم اللغة والطبيعة التي تحكم الاتصال اللفظي بين البشر، وسنحاول قدر الإمكان التمييز بين اللغة نظاماً رمزياً اجتماعياً، والخطاب / الكلام أسلوباً وممارسة فردية. مع محاولة مناقشة علاقة اللغة بسلوك الإنسان الاتصالي مع ذاته والآخرين في مجتمعه.

أولا: اللغة كنظام رمزي: " Language

يختلف الإنسان بطبيعته عن بقية المخلوقات في العالم من خلال قدرته على تخليق الرموز **Symbols** وتوظيفها في اتصاله عبر الأزمنة. وتعد اللغة كنظام رمزي اجتماعي أحد أهم السمات التي تميّز الإنسان كائناً قادراً على الاتصال وتبادل المعرفة مع الآخرين من أبناء جلدته. فاللغة تعد بمثابة نظام اجتماعي متكامل يتهيأ بواسطتها لأفراد المجتمع الانتماء إلى عالم موحّد يحتضنهم وجودياً. فاللغة أداة توحُد ثقافية ،تُسَهل للأجيال الشابة الارتباط بالأجيال التي سبقتها في الوجود، إضافة إلى أنها وعاء توصيلي جيد للحفاظ على الموروث الثقافي عبر الأزمنة.

فاللغة كنظام بنيوي من الرموز تصف الأشياء والأحداث في عالم الإنسان المَعاش، فالرمز **Symbol**، ماهو إلا شيء اعتباطي يمثل شيئاً آخر غيره. فالرمز هو ما يحل محل شيء آخر بقصد تمثيله، فالكلمة شجرة ليست في المقام الأول شجرة حقيقية، ولكنها تقوم مقام الشجرة رمزياً، وكلمة شجرة ماهي إلا شيء اعتباطي فليس في كلمة شجرة ما يوحي بأنها حقيقة مشابهة للشجرة. فالرمز لا يحمل أي سمة من سمات الشيء الذي يرمز إليه. فالاعتباطية تعني عدم وجود علاقة طبيعية أو منطقية بين الدال **Signfier** والمدلول **Signified**(١).

---

(١) F. Sausure. Course in general Linguistics, ed. Charles Bally avd Albert Sechehaye in Collaboration With Albert Reidlinger, Trans Wade Baskin. New York: Philosophical Libray . 1959. PP. 68-69.

فاللغة نظام بنيوي تخضع بموجبه الرموز والإشارات اللغوية إلى نظام تفاعلي مُحدَّد. وهذا النظام البنيوي يرجعنا بالضرورة إلى ما يسمى بالقوانين التي يتم بواسطتها مزج الأصوات الفردية بطريقة متناغمة، وبعيداً عن التنافر فيما بينها. فالرموز التي تتشكل بواسطتها اللغة كنظام اتصالي؛ من الضروري أن تكون قادرة على الإشارة إلى العديد من الأشياء والأحداث والعلاقات في عالم الإنسان، وبشكل يهيىء لمتحدث اللغة اتصالاً فاعلاً بذاته وبالآخرين من حوله في العالم المُعاش. فالإشارات والرموز اللغوية (الكلمات) تؤدي مهمة توصّيف لعالم الإنسان بكل ما يحويه من أشياء وأحداث وعلاقات. والتسّمية هذه في حد ذاتها تعني السيطرة على العالم المحيط بكيان الإنسان، وإمكانية تحدّث هذا العالم،

فبواسطة اللغة يستطيع الإنسان تجميد خبراته وإفرازاته الإبداعية (التي منحها للغة واستعادتها وقت الحاجة) وإعادة تمييعها وتوظيفها في وقت لاحق. وهذا أيضاً يساعد الإنسان على نقل وترحيل هذه التجارب والخبرات التراكمية ثقافياً إلى أجيال مستقبلية، وهو ما دعا ألفريد كوزريبسكي **Korzybski**، مؤسس علم المعاني العامة إلى القول، بارتباطية الإنسان زمانياً (٢). فاللغة تُعد بمثابة الوعاء الحاضن لمكتسبات الثقافة ولنقلها من جيل إلى جيل بما يحافظ على هوية أفراد الأمة.

١ ـ طبيعة البُنية اللغوية:

حينما نناقش طبيعة واستخدامات النظام اللغوي، فمن الضروري الإشارة إلى ثلاث مستويات مهمة في هذا النظام:

---

(٢) Alfred Korzybski, Science and Sanity: Anintroductioon to Non-Aristotelian Systems and General Semantics.Lakeville, Conn: The International Non-Arstotelian Library, 1933.

أ ـ العلاقات المنطقية الأساسية Syntactics

وهي الناحية ذات الاهتمام بالمنطق اللغوي الذي يحكم علاقة الإشارات والرموز اللغوية بعضها ببعض، مثل قواعد بناء الجملة والعبارات، وبشكل يُتيح لمتحدثي اللغة، الالتزام بنمط كوني عام عند استخدامهم للنظام اللغوي بما يمكنهم من فهم بعضهم البعض.

ب ـ الناحية الخاصة بالمعاني Semantics

أي المجال الذي يدرس علاقة الإشارات والدوالّ اللغوية بالأشياء التي تصفها أو تحاول الإشارة إليها في العالم. وهذا يعني التعريفات الإجرائية (دلالات الألفاظ) المستخدمة في اللغة المتداولة بين الأفراد. فتحديد معاني الكلمات يعني الاتفاق الجمعي حيال ما ترمي إليه الرموز بين أفراد المجتمع وبشكل يُسهل عملية الاتصال بينهم.

جـ ـ المستوى الإجرائي السلوكي Pragmatics

وهذا المجال يختص برصد العلاقات التي تربط الدوال ومستخدمي هذه الدوال. أي الأثر الذي تُحدثه هذه الإشارات اللغوية في ذهنية وسلوك الأفراد. فالأثر النهائي للرسالة اللغوية المنطقية والمحمّلة بالمعاني غالباً ما يؤدي إلى إحداث رد فعل سلوكي لدى المُتلقي. ففي الاتصال ندرك حقيقة الأثر الإقناعي أو الدعائي للرسالة الاتصالية على المتلقي برصد السلوك الناتج عنها سواء أكان عاجلاً أو آجلاً.

وفي حقل الاتصال دائماً ما نهتم بالناحية الإجرائية للسلوك الجماهيري أو الفردي المتولّد عن دينامية التفاعل اللغوي في المجتمع. وقد يكون من المناسب القول في هذا السياق؛ بأن دراسة نواحي المنطق اللغوي ودلالات الألفاظ تعتبر من

اهتمامات علماء اللغة عامة، والذي يهمنا نحن بالدرجة الأولى هو الناحية التفاعلية بين عالم اللغة كنظام اتصالي ومستخدمي هذا النظام من البشر. فاهتماماتنا في هذا الجانب تنصب على الافتراضات المتجذّرة في النظام الرمزي وآثاره الشخصية والثقافية على مستخدميه، من ناحية علاقة الكلمة بالحقيقة المجرَّدة والنظرية بالوصف والمشاهد بما هو مشاهد. فالالتفات هنا يتمحور حول دور اللغة من ناحية تقييمية وتنبئية إضافة إلى سيطرتها على الأحداث وقدرتها على تجسيد التكيُّف الشخصي والتماسك الاجتماعي بين الأفراد.

فالاتصال يُعد بمثابة اللعبة التي ينخرط فيها كل من المتحدث والمستمع ـ المرسل والمتلقي، بهدف التغلب على نواحي الغموض واللامعنى. ففي اتصالنا بالآخرين يجب أن نتوقع أن يُساء فهمنا من قبل الآخرين. مثلما هو متوقع إساءة فهمنا لهم. وكل ما يمكننا القيام به في هذه اللعبة لا يتجاوز تقليصنا لسوء الفهم هذا دونما قدرة على التخلص منه نهائياً.

وكما يرى أناتول رابوبورت Rapoport في كتابه المعنون بـ العلم وأهداف الإنسان (١٩٥٠)، فإننا ككائنات مُتحدّثة يمكننا أن نتحدث عن عالمين مستقلين: عالم الأشياء التي نلمس ونرى ونستشعر ونُعايش مادياً (العالم المادي الخارجي)، وعالم الكلمات والألفاظ اللغوية. . فالخبرة الإنسانية لا يُمكن ترحيلها كتجربة إنسانية مُعاشة دونما ترجمتها أولاً إلى شيء آخر، وهذا الشيء الآخر هو الشيء المحول والمُرحل والذي يُجسد الخبرة ويمثلها. فعالم اللغة يصبح بمثابة الشيء الذي يُعيد تمثيل خبراتنا وتجاربنا، والذي بواسطته يمكننا تصوير عالم الأشياء الصامت والناطق في آن واحد. وحسب تصورات ألفريد كورزيبسكي Korzybski في كتابه الشهير العلم وسلامة العقل (١٩٣٣) ، فإن الكلمة ليست بالشيء الذي نوصفه أو تحاول تمثيله لنا. فالكلمة مثلها مثل الخارطة التي تحاول وصف منطقة

جغرافية محددة. فاللغة هنا ليست إلا وسيطاً نتمكن عن طريقه من بث الحياة مرة أخرى في عروق عالمنا المادي الصامت المحمّل بتجاربنا وخبراتنا الماضية والحاضرة والمستقبلية.

فاللغة نظام يتسمّ بالتخصصية الاتصالية، وهذه التخصصية الاتصالية تقصرُ اللغة على أداء وظيفة واحدة هي الاتصال الإنساني وليس أي شيء آخر. فالرسائل اللفظية المتبادلة بين الأفراد دائماً يكون هدفها توصيل أفكار معينة يتوصل من خلالها أطراف التفاعل إلى المعنى المُشترك. إن اللغة كنظام اتصالي متشكل من تراكمية رمزية يُمكن للأفراد في أي ثقافة من خلال تلقفها التعبير عن عالمهم المعاش واستخدام هذه الإشارات اللغوية في اتصالهم بذواتهم وبالآخرين. ولكن اللغة إضافة لمخزونها التراكمي (العبارات والكلمات المتداولة بين الأفراد عبرالأزمنة)، تتميز بالمرونة والانفتاح وقابليتها للإثراء بإلحاق إشارات ودوال جديدة. فاللغة كنظام رمزي قادرة على احتضان العبارات والكلمات المستحدثة نتيجة لحاجة الأفراد وما يستجد في عالمهم من أحداث ومبتكرات تقتضي التوصيف والترميز اللغوي. واللغة كنظام اتصالي توفّر للإنسان القدرة على تجاوز حواجز الزمان والمكان باستنطاق الماضي البعيد والأماكن والعوالم الحقيقية أو المتخيلة. وهذا ما يسميه علماء اللغة بالإزاحة أو الإحلال **Displacement**، والتي نتمكن بواسطتها من الحديث عن العالم الغابر وعالمنا المعاش في التو واللحظة، إضافة إلى استشرافنا المستقبل.

فبواسطة اللغة نستطيع أن نتحدث عن عالم الواقع مثلما هو ممكن لنا استنطاق عالم الخيال. وأيا كان الحال, فإن مايهمنا هنا هو الناحية الدلالية للغة

A. Rapoport. Science and The Goals of Man. New York: Harper. 1950

كنظام يختص بالاتصال. فالمعنى الاتصالي ينبثق من السياق اللغوي والتفاعل بين الإشارات والتفريقية الجوهرية التي تحكم علاقات هذه الدوال البينية. فالدالة اللغوية لا يمكن أخذها مستقلة كمعنى، بعيداً عن موقعها في السياق اللغوي والمحيط الاتصالي. فالمعنى الخاص بالكلمة أوالعبارة اللغوية يتميز بمستويين: الأول دلالي **Dennotative**، وهو المعنى الاصطلاحي المتفق عليه جميعاً والذي تتداوله القواميس اللغوية والألسن البشرية في التفاعل اليومي. فالمعنى الدلالي معنى عام/ كوني. أما المعنى الضمني **Connotatice**، فهو ما نقصد بالصورة الذهنية التي يرسمها الرمز أوالدالة اللغوية في أذهاننا، والتي بموجبها نحمل دلالات ضمنية شخصية خاصة بنا تختلف عن المعنى المتعارف عليه جميعاً. فالمعنى الدلالي لكلمة الجوع قد يكون الحالة التي يشعر بها من يحتاج الطعام. أما المعنى الضمني للدالة فيختلف من شخص لآخر. فقد تعني صور الفاقة والحاجة التي تعاني منها شعوب أفريقيا والتي عايشتها في إحدى رحلاتك أو زياراتك. فهنا تصبح دلالة الجوع انطباعاً شخصياً أومعنى إضافياً على المعنى الدلالي المتعارف عليه جميعاً. وهذا ما يجعلنا أكثر حذراً في اتصالاتنا وحوارتنا بأن لا نأخذ العبارات على مفاهيمها السطحية المتعارف عليها، حتى نضمن عدم الخلط وإساءة الفهم للآخرين. فمن المفترض أن نسائل ما يقصده الآخرون بعباراتهم ومصطلحاتهم اللغوية حتى ندرك حقيقة ما يرمون إليه. فنحن نؤكد على أن البشر هم من يحملون المعنى وليس الكلمات أو الدوال اللغوية. فالمعنى في الإنسان وليس في لغته كما يؤكد علماء الاتصال. وهنا سنحاول أن ننتقل إلى توضيح مفهوم الكلام/ الخطاب وعلاقته بالنظام اللغوي في مُجمله.

طبيعة الكلام الخطاب Speech

باعتبار اللغة منظومة تجريدية وهيئة اجتماعية في نفس الوقت، فإن الكلام / الخطاب الإنساني ماهو إلا فعل فردي، يقوم بموجبه الأفراد بتوظيف مشتقات نظام اللغة في التفاعل اليومي. فالفرق بين اللغة **Language** والخطاب الشخصي المتحدث **Speech**، يتضح من خلال طروحات عالم فقه اللغة السويسري فرديناند دي سوسير **F. desaussure** (١٩٥٩). فاللغة كما يُسميها لانقو **Langu** تُعد شيئاً اجتماعياً يمتلكه المجتمع بأسره، أما الكلام / الخطاب **Laparole** بالنسبة إليه فيعني المنجز الفردي. فاللغة وسيلة ممكنة بينما الخطاب الشخصي يؤخذ على أنه أنشطة وممارسات فعلية اتصالية . فهناك رابطة ديالكتيكية تحكم اللغة كنظام اجتماعي والكلام كأداء فردي فعلي. فمن المتعذر أن يكون هناك لغة دونما كلام، مثلما هو من غير الممكن وجود كلام خارج النظام اللغوي. وهذا ما يُسميه الفيلسوف الفرنسي ميرلوبونتي **M. Merleau - Ponty** بالممارسة اللغوية الفعلية **Praxis** (٣). فاللغة ليست إلا معايير يحتكم ناحيتها الأفراد في ممارساتهم الخطابية اليومية . فالخطاب **Speech** يحافظ على ثروة اللغة كنظام رمزي من خلال الممارسة الكلامية، وفي نفس الوقت تطوير هذا النظام اللغوي لتحدّثه على المستوى الجمعي. إضافة إلى أن الخطاب كنظام ممارسة لا يمكن له الحضور دونما نظام لغوي يستمد منه معايير وأنماط الأداء.

---

(٣) M. Merleau-ponty. Phenomenology of perception. New York. Humanities Press (Original Work Published 1945. Trans. colin .Smith. Corrections 1981)See chaptr two for a full discussion of the speech phenomenon: and the concept of the "speaking- subject."

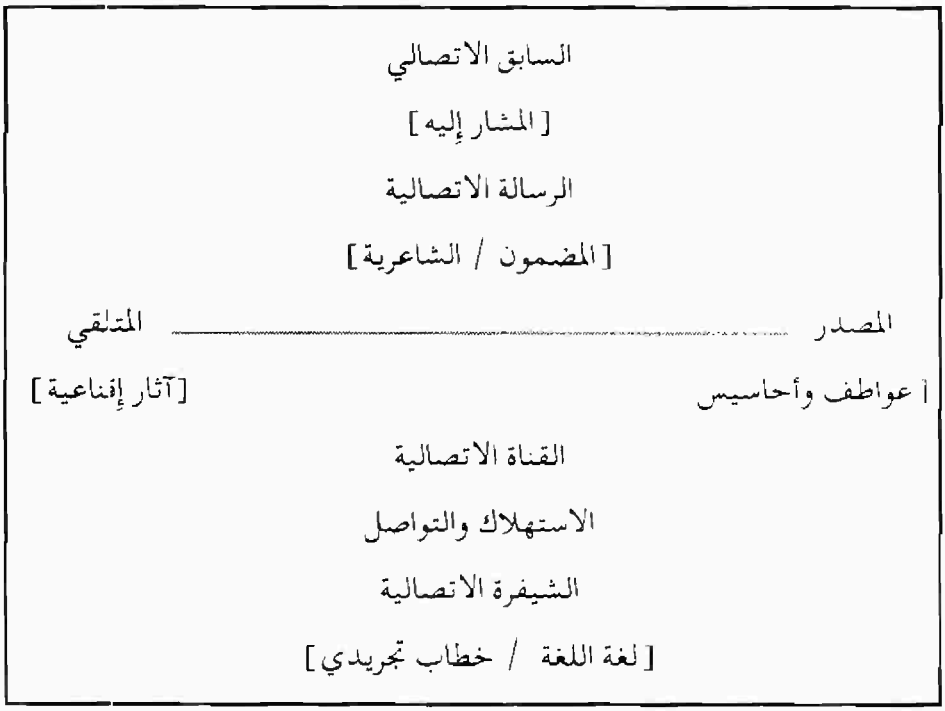

نموذج رومان جاكوبسون للاتصال (شكل ١ - ٢)

وتظل وظيفة الكلام / الخطاب مرتبطة حسب رؤية رومان جاكوبسون **R. Jakobson** (١٩٧٦) بعناصر العملية الاتصالية. فللخطاب ست وظائف ترتبط بستة عناصر اتصالية مهمة: فالوظيفة العاطفية للخطاب ترتبط بالمصدر الاتصالي.

والوظيفة الترحيبية للخطاب ترتبط بالقناة الاتصالية.

والوظيفة البلاغية للخطاب ترتبط بالمتلقي الاتصالي.

والوظيفة المعرفية للخطاب ترتبط بالمشار إليه (السياق الاتصالي)

الوظيفة اللغوية للغة الخطاب ترتبط بالشيفرة (الكود الاتصالي).

الوظيفة الشاعرية للخطاب ترتبط بالرسالة الاتصالية(٤).

(٤) E. Holenstein, Roman Jakobson's Approach to Language: Phenomenological Structuralism (Bloomington, In: Indiana University. Press, 1976). P. 154.

١ـ فالوظيفة العاطفية / الحسية مرتبطة أساساً بالمصدر باعتبارها تؤدي دوراً سيكولوجياً **Emotive** ، فالخطاب كوظيفة عاطفية يُعبّر بواسطته المصدر عن انفعالاته وأحاسيسه وما يخالج ذاته. فالشخص المتحدث يحاول توصيل أفكاره ومشاعره إلى طرف آخر في الحدث الاتصالي.

٢ ـ الوظيفة الاستهلالية التوصيلية للخطاب Phatic، ويراد بها الأنشطة الترحيبية التي يستهل بها الأفراد المواقف الاتصالية. فهي تؤدي دوراً هاماً في تكوين العلاقات الاجتماعية بين الأفراد. فالسؤال عن أحوال الآخرين ومبادرتهم بالاستقصاء عن أحوالهم يعمل بمثابة الإبقاء على القنوات الاتصالية مُشرعة بين الأطراف المتفاعلة. فالشخص الذي يُبادر شخصاً آخر بمقولة (يبدو الجو جميلاً اليوم) أو (المكان مزدحم على ما يبدو) يسعى إلى فتح قنوات الاتصال مع الطرف الآخر للدخول في تفاعل اتصالي. وهذه الوظيفة ترتبط مباشرة بالقناة الاتصالية **Channel** باعتبارها وسيلة لنقل الحوار البينشخصي في الاتصال.

٣ ـ الوظيفة البلاغية للخطاب **Rhetorical**، وهو ما يُعرف بالناحية التأثيرية في سلوك الآخرين وأفكارهم واتجاهاتهم. فالخطاب كوظيفة يهدف إلى توجيه سلوك الآخرين والسعي إلى إقناعهم بتبني وجهة نظر أو فكرة محددة يرغب المصدر الاتصالي في تمريرها. ويجيد رجال السياسة والحكماء ورجال الدعاية عامة هذه الوظيفة الإقناعية بشكل كبير. ولهذا ترتبط هذه الوظيفة بالجمهور (المتلقيّ) باعتباره مستهدفا من قبل المصدر الاتصالي.

٤ ـ الوظيفة المعرفية للخطاب .**Cognitive**، والتي تعني ما هو مُشار إليه في عالم الواقع. فهو الشيء الدلالي أو المعلوماتي كمرجعية تحكم الخطاب. ويمكن

تصور هذه الوظيفة بمثابة السياق **Context** الاتصالي الذي يعمل كمحور ضابط للمضمون العام. ولذلك ترتبط هذه الوظيفة بالسياق الاتصالي بشكل كبير.

٥ ـ الوظيفة اللغوية للغة Metalanguage ، والتي تشير إلى كلام الكلام أو الخطاب التجريدي الذى يتحدث عن نفسه. ففي عالم اللغة هناك مستويين لغويين: الأول يُسمى لغة الأشياء **Objective Language**، والتى نتحدث بواسطتها عن عالم المادة والأشياء في حياتنا اليومية. والمستوى اللغوي الثاني هو ما يَعرف بلغة اللغة **Metalanguage**، والتي نوظفها في حديثنا عن أحاديثنا نفسها، أي بعيداً عن عالم الأشياء وقريباً من عالم اللغة نفسها. وترتبط هذه الوظيفة الكلامية للكلام نفسه بما يُعرف اتصالياً بالشيفرة (الكود الاتصالي).

٦ ـ الوظيفة الشاعرية للخطاب Poetic ، وهي ترتبط مباشرة بالرسالة الاتصالية،أو الناحية التي تساهم في خلق مضمون الرسالة باعتباره إما مُتميزاً جمالياً أو سردياً خالياً من الذائقة الجمالية.

وأيًا كانت الوظائف، فإن أي رسالة اتصالية يمكنها أن تحمل العديد من الوظائف في ثناياها وليس مجرد وظيفة واحدة فقط، حتى وإن كان ممكنا لوظيفة من هذه الوظائف أن تكون أكثر وضوحاً في الحديث من غيرها، ففي أي فعل اتصالي تبرز معظم هذه الوظائف الست وبدرجات متفاوتة بحسب الموقف التفاعلي بين طرفي الاتصال.

ثانياً: التفاعل اللفظي والسمات الاجتماعية للغة:

إن تفاعلات البشر اللفظية تعتمد في أساسها على النظام الرمزي اللغوي و لذي يزود هذه التفاعلات بما تحتاجه من إشارات ودوال **Signs** تشكّل في نهاية

الأمر طرائق التوظيف الأمثل لفظياً. ويحدث أن تتأثرهذه التفاعلات اللفظية بعوائق يرجع بعضها إلى طرائق الاستخدام البشري وبعضها الآخر يرجع إلى طبيعة النظام الرمزي اللغوي نفسه. ويهمنا هنا التعرض لبعض هذه الجوانب الخاصة بالتفاعل اللفظي، ومحاولة التعريف بالسمات الاجتماعية للغة.

تتميز اللغة كنظام رمزي مقارنة بالأنظمة الرمزية الأخرى بخاصة فريدة، تنحصر في قدرتها على أن تنعكس على ذاتها كالمرآة والتحدث عن كينونتها. فالقدرة الانعكاسية للغة **Self-reflexivity**، تمكننا كثيرا من أن نتحدث عن أحاديثنا ونناقش مناقشاتنا. فالإنسان بمقدوره أن يتحدث عن حديثه كلغة. وهذا ما نقصده بلغة اللغة **Metalanguage**، أي اللغة التي تتحدث عن نفسها كلغة، فعلى سبيل المثال عندمايتحدث شخصان عن التعليم وفجأة يأخذون في التحدث عن حديث التعليم نفسه، وهذا يعني انتقالهم إلى مستوى تجريدي أعلى من المستوى الخاص بحديثهم عن التعليم في البداية. وهذا ما يحدث الاضطراب عندما ينتقل أحد المتحدثين إلى مستوى لغوي أعلى من الشخص الآخر الذي لا يزال في مستوى الحديث الأولي.

ومن الضروري في استخدامنا للغة أن نلتفت إلى هذه المزية اللغوية، بسبب الخلل الذي يضرب أرض الواقع عندما نبدأ في الحديث عن أحاديثنا أو استعراض ما استعرضناه في مناقشاتنا، فالمتوقع هو أن الكثير من الخلط للحقائق الأساسية يحدث في اتصالاتنا الشخصية. وللحد من هذا الخلط الناتج عن انعكاسية اللغة على ذاتها يقدّم العالم اللغوي كورزيبسكي **Korzybski** (١٩٣٣) مفهوم المستويات التجريدية المتعددة. ويتمحور مفهوم مستويات التجريد حول عدم وجود معنى عام للكلمات يمكننا التسليم به في اتصالنا بالآخرين والعالم المُعاش. فعلى سبيل المثال يمكننا أن نقول العبارة التالية «السيارات اليابانية أكثر اقتصاداً من

السيارات الأمريكية». وتعتبر هذه العبارة مستوى أولي للتجريد من الواقع **Abstraction**، ولكن بوسعنا أيضا أن ننتقل إلى مستوى تجريدي أعلى من خلال العبارة التالية «أصبحت السيارات وسيلة عصرية قاتلة». وفي هذه العبارة نجد أننا انتقلنا إلى مستوى تجردي أعلى بعيد عن أرض الواقع المشترك لأطراف الاتصال. وهذا ما قد يحدث الاضطراب والخلط وإساءة الفهم لدى الطرف الآخر. فالفرق بين المستويين التجريديين في العبارتين واضح تماما، فالحديث انتقل من مقارنة السيارات إلى آثار ونتائج دخول السيارة في حياة المجتمع المعاصر. وبطبيعة الحال نجد أن المعنى هنا يتأثر من مستوى لآخر. فالمستوى التجريدي هو الذي يحدّد المعنى المقصود للعبارة. ومن هنا يجب أن نولي هذه الناحية اللغوية في اتصالنا جانباً كبيراً من العناية، ومحاولة أن يكون طرفا الاتصال (مرسل ومتلقي) على مستوى تجريدي لغوي واحد لكي يتم إنجاح الاتصال.

ولهذا من الضروري أن نذكّر أنفسنا دائما في قراءاتنا وتفسيراتنا للغة بالنواحي والمستويات المتعددة للدلالات (المعاني). ومن هنا يجب الاحتكام دائما إلى السياق Context الذي يحتضن الدالة باعتباره المقياس الحقيقي للمعنى المحمّل في ثناياها، بخاصة في حالة وجود أكثر من معنى للدالة. فعبارة (تغلب محمد على الكلب بعصا) تعني أن محمداً ضرب الكلب بالعصا، وعبارة (تغلب محمد على خالد في الشطرنج) تدل على أن محمداً هزم وتفوّق على خالد، وعبارة (تغلب محمد على مشاكله) تشير إلى أنه قد تجاوزها ..... إلخ.

فالسياق اللغوي مهم جدا في تحديد معاني الدوال، ولا يمكن اشتقاق المعنى الحقيقي للدالة إلا في إطار هذا السياق اللغوي، فالشخص الذي يقول (أنا أمقت رجال البوليس ممن يسيئون استخدام سلطاتهم)؛ لا يمكن لنا تفسير وإدراك ما يقوله إلا في نفس سياق اللغة. ففيما لو ذكرنا فقط أن هذا الشخص يمقُت رجال

البوليس دونما سرد لمجمل جزئيات السياق؛ فإننا نخرج. بمعنى مغاير تماما لما قصده القائل، فالمقت والكره هنا مرتبط بإساءة استخدام السلطة وليس أي شيء آخر.

وفي ظل وجود مستويات عديدة لتوظيف الكلمات (الدوال) لغويا، فإنه من الواجب على المتحدث أن يكشف ما يقصده باستخدام لفظة أوكلمة في سياق محدد. فعلى سبيل المثال هناك كلمات مثل الديمقراطية – العدالة – الشرعية – الحرية – الحُب – الإرهاب، والتي لا تتضمن معاني محددة بعينها. فمعظمنا يحمل في ذهنه معنى خاصاً به للكثير من هذه المفاهيم. ومن هنا يتوجّب على المصدر الاتصالي والمتلقي تحديد المعنى المقصود شخصيا للدالة أو المفهوم والموظف في سياق للغة؛ تحاشيًا للاجتهادات الخاطئة والتفسيرات المجانبة للمقصود.

وقد يكون من الضروري الإشارة في سياقنا هذا إلى الناحية الشكلية **Stylestic** التي تتضمنها لغتنا المنطوقة. فالأحاديث اللغوية في اتصالاتنا اليومية تعطي أبعاداً عديدة عن حياتنا الاجتماعية، فالخطاب الشخصي يعطي انطباعاً عن المنطقة الجغرافية التي ينتسب إليها المتحدث، فمتحدثو العربية يستطيعون التعرف من خلال حديث الشخص على المنطقة التي ينتمي إليها جغرافياً خاصة عن طريق اللهجة التي يتحدثها. كما هو ممكن أيضا التعرف وبسهولة على من تعلّم العربية لغة ثانية له ومن تعتبر العربية لغته الأم.

كما أنه يمكن من خلال أسلوبنا اللغوي سواء على المستوى الخطابي أو المستوى الكتابي، أن نترك انطباعاً لدى الآخرين عن مستوياتنا التعليمية. فمن المؤكد أن قدرة الشخص المتعلم في التوظيف اللغوي تعد أكثر تميزاً من حيث الشكل والمستوى التجريدي ونوعية الكلمات المستخدمة من أنصاف المتعلمين أو من لم يحظوا بدرجة تعليم عالية.

فحديث الشخص المثقف والمطلع دائماً ما يُبهر الآخرين ممن لا يحملون نفس السمة.

كذلك نجد أن أسلوبنا الكلامي ينبئ عن الخلفية الاجتماعية التي ننتسب إليها كأفراد، ففي المجتمع نجد أن كلمات وعبارات لغوية محددة تستخدمها طبقة أو فئة من الأفراد وبشكل يميزها عن غيرها من الفئات، كطبقة الحرفيين والمهنيين واستخدامهم الألفاظ من واقع عالمهم المعاش، أو كطبقة الأكاديميين أو أفراد الجيش، فجميع هؤلاء يصبحون مميزين من خلال ما يستخدمون من ألفاظ وعبارات في أساليبهم اللغوية وبشكل يجعل من السهولة بمكان التعرف عليهم. إضافة إلى أن صفات الذكاء والشخصية تبدو أكثر وضوحاً من خلال استخداماتنا اللغوية بشكل أو بآخر. فبالقدر الذي تكون عليه قدرات الشخص العقلية يكون مؤهلا لاستخدام اللغة بطريقة ابتكارية مُبهرة يسيطر من خلالها على مفردات اللغة وأساليب توظيفها. من حيث المقدرة على عرض الأفكار وطريقة التعبير عنها بأساليب عدة بحسب الرغبة الشخصية والموقف الاتصالي. إضافة إلى أن السلوكيات الشخصية لنا قد تبدو واضحة في أسلوبنا اللغوي مع الآخرين، فالشخص العصبي يبدو من حواره مدى تحدثه بشكل متسارع، والشخص العدواني يُعرف من خلال صوته المرتفع وأسلوب الحوار الذي يقاطع به الآخرين. كما أن الشخص الذي يعاني من مشكلة نفسية كالإحباط أو الاكتئاب، نجد أن أسلوبه يتسم بالهدوء وانخفاض الصوت .... إلخ.

إضافة إلى أن الفروق الجنسية والعُمرية تلعب دوراً في تحديد أساليبنا اللغوية، فهناك قوانين تحكم حديثنا في المجتمع بحسب أعمارنا وتصنيفاتنا الجنسية من حيث الذكورة والأنوثة، فأحاديث الصغار محددة دائما في نطاق ضيق لا يمكن لهم تجاوزه بعرف المجتمع، كما هو بالنسبة لكبار السن والذين يتميز حديثهم بالمحافظة والالتزام. وذلك بعكس الشباب الذي تجد في أساليبهم الكثير من الانفتاح والتوظيفات غير المقبولة من الجيل السابق. أيضا أحاديث النساء من

المتعارف عليه أن تكون أكثر لياقة والتزاماً بالسلوك المهذب، وقد يعاب على المرأة سواء أكانت فتاة عزباء أو متزوجة التلفظ بعبارات بعينها باعتبارها خارج حدود اللباقة وما هو متوقع من المرأة في المجتمع. وليس مستغرباً أن توصم المرأة بلقب المسترجلة في المجتمع الشرقي فيما لو تناولت في أسلوبها اللغوي عبارات تتناسب وعالم الشارع الخاص بالرجال والذي يتنافى وطبيعتها الأنثوية. ولا ننسى أن المجتمع يفترض في المرأة باعتبارها مربية للجيل أن تكون لغتها سليمة ومنضبطة أكثر من الرجل، لأن الطفل يبني حصيلته اللغوية من خلال اتصاله الأولي بأمه.

حقيقة تظل أساليبنا اللغوية في أحاديثنا واتصالاتنا بالآخرين ذات بُعد مهم، تتكشف من خلاله الأطر الاجتماعية والنفسية التي تحتضن ذواتنا ككيانات تتعامل بالرموز. وهذا يُعطي بُعداً مهماً عن لغتنا التي تعكس في حقيقتها الكثير من السمات الخاصة بعالمنا المعاش. فاللغة ليست إلا مسكناً حقيقياً نتعرف فيه على ذواتنا أولاً، ونتواصل بواسطتها مع بني جنسنا ومع عالمنا المادي بكل ما يحتويه من تجارب وأحداث.

وبهذا نكون قد استعرضنا طبيعة النظام اللغوي وطبيعة الخطاب الشخصي ووظائفه ومدى علاقة اللغة كنظام اجتماعي بالخطاب كفعل فردي، إضافة إلى تفكيك بَنية الاتصال المعكوسة من خلال اللغة في تفاعلنا اليومي في المجتمع.